International Multilingual Journal of Science and Technology (IMJST)
ISSN: 2528-9810
Vol. 8 Issue 2, February - 2023

فكر الجماعات المتطرفة كعائق أمام تطبيق القانون الدولي الإنساني في النزاعات المسلحة: دراسة تحليلية

عامر ذياب الجعافرة [1]
باحث في كلية الدفاع
عمان، المملكة الاردنية الهاشمية

د. محمود إسماعيل[2]
Associate professor in civil law
Applied Science Private University
Amman, Jordan
m_turabi@asu.edu.jo

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تقديم مادة علمية تعين العاملين في مجال القانون الدولي الإنساني على فهم أحد أهم أطراف النزاعات المسلحة المعاصرة، وهي الجماعات المتطرفة التي تقود ظاهرة الإرهاب، واختار الباحثان الجماعات المتطرفة في المنطقة العربية كشريحة للدراسة. تشكل ظاهرة الإرهاب تحديا جديدا نسبيا لأطراف القانون الدولي الإنساني، ذلك أن الإرهاب طَوّر أشكال النزاعات المسلحة التي يحكمها القانون الدولي الإنساني، وأثار جدلا قانونيا وحقوقيا وسياسيا وإنسانيا حول العلاقة بين أمن الدول والمجتمعات وبين حقوق الأفراد، وانتهى الأمر إلى الادعاء بعدم كفاية قواعد القانون الدولي الإنساني التقليدية العامة لتغطية الواقع التفصيلي الجديد في الميدان، ما أدى إلى مراجعة تفسير مدلول ونطاق تطبيق القانون الدولي الإنساني مراجعة عميقة لم تحدث إضافة البروتوكولين الشهيرين في العام 1977، اللذين تمما اتفاقيات جنيف لعام 1949. بلغت ذروة هذا الجدل بشأن الحماعات الإرهابية بعد هجمات 2001.09.11 في الولايات المتحدة الأمريكية، واتساع نطاق العمليات الإرهابية في الدول الغربية التي شهدت ولادة القانون الدولي الإنساني ابتداء. هذا البحث لا يهدف إلى نقاش أسئلة القانون الدولي الإنساني المعتادة حول طبيعة النزاع المسلح الذي تكون الجماعات الإرهابية طرفا فيه، ولا طبيعة العمليات العسكرية التي ينفذونها ضد أهداف مدنية، وإنما هدف البحث هو تحليل فكر هذه الجماعات المتطرفة لتفسير طبيعة الاستهداف وغاياته ودوافعه ابتداء، ستساعد نتيجة هذا البحث في إعادة تعريف العلميات العسكرية التي تنفذها الجماعات المتطرفة، واستخلاص معيارية تفيد في تصنيف النزاعات التي يكونون طرفا فيها، بل وفي أي محاولة مستقبلية لتصنيف أفراد هذه الجماعات المتطرفة كمقاتلين. توصل البحث إلى أن الجماعات المتطرفة المقاتلة لا تعتبر القانون الدولي مرجعية لها، والفرق بينها وبين أطراف النزاعات المسلحة التقليديين أن الأخيرين يحاولون الادعاء بأنهم يطبقون القانون الدولي الإنساني أثناء القتال، أما الجماعات المتطرفة فتفعل العكس، وتتباهى بعدم امتثالها لأي مرجعية قانونية أو أخلاقية سوى مرجعياتها الإفتائية، سبب كل ذلك في الحقيقة يكمن في فكر هذه الجماعات المتطرفة.

الكلمات الدالة: القانون الدولي الإنساني، الإرهاب، فكر الجماعات المتطرفة.

I. المقدمة

تميزت الجماعات المتطرفة في المنطقة العربية بحملها فكراً أيدولوجياً انشقاقيا خاصاً بها، ساهمت في تشكيله وتطوره العديد من الظروف التاريخية المعاصرة الحادة والإسقاطات الدينية المبتورة، فلم يكن إرهاب المدنيين وقتل الآمنين وخفر الذمة يوماً جزءاً من عقيدة المسلم أو فكره الجهادي، ناهيك عن من يعتقد بتقربه إلى الله بحمله وتطبيقه.

سنجيب في هذا البحث على سؤالين: ما هي الظروف التاريخية المعاصرة التي أدت إلى نشوء الجماعات المتطرفة المقاتلة في المنطقة العربية؟ وما هي أهم التوجهات الفكرية التي تسيّرها؟ ستؤدي الإجابة على هذين التساؤلين إلى إضاءة جوانب قانونية معتمة حول هذه الجماعات في القانون الدولي الإنساني، من حيث صفتها كتنظيمات قتالية منظمة أو غير منظمة؟ أتتبع تسلسلا في القيادة أم تعمل بعشوائية؟ أيمكن اعتبارها ميلشيات أم لا؟ هل نزاعاتها المسلحة وعملياتها العسكرية خارج أراضيها تعتبر نزاعات دولية أم غير دولية؟ وهل هي عمليات عدائية متعدية أم هي مقاومة احتلالات؟ وهل يمكن مقارنة هذه الجماعات المقاتلة على أسس أيديولوجية بالدول التي تقوم بعمليات عسكرية عدائية لأهداف سياسية واقتصادية محضة؟ هذه الأسئلة وغيرها الكثير مما يعني فقهاء وعاملي القانون الدولي الإنساني ستصبح أسهل في فهمها والإجابة عليها بعد سبر حقائق الفكر المتطرف للجماعات الإرهابية العاملة والمتدخلة كأطراف في النزاعات الحالية على المستوى الدولي.

سنفعل ذلك عبر مبحثين: يقدم الأول لنبذة مجملة عن التاريخ السياسي للحركات المتطرفة المعاصرة في أربعة مطالب يغطي كل مطلب منها حالة من حالات الزخم الجمعي المنظم لحركات مقاتلة استندت في تحشيدها وقتالها على أسس فكرية دينية الجذور وبلغت في تقديسها لموجهاتها الفكرية حدا تبريريا متطرفا يسمح بالذهاب بعيدا في المزاوجة بين الجهاد كمفهوم ديني وبين الدفاع عن الوطن كممارسة دنيوية، قبل ترقية ذات الموجهات الدينية لاحقا لبناء المواقف السياسية عليها وتكوين أحزاب وحركات سياسية وخلق قواعد شعبية تغذي مشروعاتها بالطاقة البشرية عبر استقطاب الشباب في ظروف اقتصادية وسياسية واجتماعية معينة ليصبحوا وقودا للصراعات. هذه الحالات هي على التوالي: الجهاد الأفغاني، والحرب على الإرهاب، والحرب العراقية وداعش. فيما يعرض المبحث الثاني لتحليل إجمالي لأسباب وآثار ظهور هذه الحركات المتطرفة على الشباب العرب وكيف تفاعلت في أحوال البلاد العربية وغيّرتها.

II. التاريخ السياسي للجماعات المتطرفة المعاصرة في المنطقة العربية

بدأ ظهور الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث أثناء المرحلة الإستعمارية التي تبعت انهيار دولة الخلافة العثمانية، وقد بدأ التأطير النظري للفكر السياسي الإسلامي في مجموعة رسائل لأبي الأعلى المودودي في العام 1939م تحت عنوان (نظرية الإسلام)، ولخص فيها المودودي البناء السياسي للدولة الإسلامية، وحسب هذه النظرية فإن المودودي يلغي أي دور تشريعي للبشر ويستدعي مفهوم الحاكمية السياسي ويعيد تأويله وتأطيره ليصبح أساساً سياسياً معاصراً لدولة إسلامية بحسب منظوره.

بعد أن انتشرت نظرية الإسلام السياسي للمودودي في أرجاء العالم الإسلامي، ووجد المودودي أنصاراً في العديد من البلدان العربية قام بتأليف كتابه "المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم"، يشرح فيه مفهوم الحاكمية بشكل أوسع ويربطها بالتكفير، ضاربا فيها أمثلة حياة الأمم السابقة والأنبياء وأقوامهم، ومستخرجاً منها تأويلات لإثبات أن عدم امتثال الأمم للحاكمية هو سبب كفرها وعذابها، واستخدم هذه التأويلات في الإسقاط على حاكمية ولاة أمر المسلمين معتبرا إياها سبب كفر الأمة، وكان من تشدد المودودي في نظريته أن أدخل تأويلات مخالفة للمنقول من الكتاب والسنة الصحيحة، منها مثلاً ما ذكره عن المشركين العرب، حيث أوّل المودودي شركهم بالله بكونه طاعتهم ساداتهم وآباءهم دون عبادة الأوثان [1].

شكّلت مؤلفات المودودي أساسا انطلقت منه إيدولوجيات الجماعات المتطرفة المعاصرة [2]، وبوصول فكره ومؤلفاته إلى البلاد العربية، أصبحت مدار بحث ونقاش بين علماء الدين، فمنهم من أخذ بها ومنهم من ردّها.

انتقل هذا الفكر للتطبيق العملي على يد جماعة التكفير والهجرة التي انشق بها الشاب شكري مصطفى عن جماعة الإخوان المسلمين في مصر عام 1965، وحاولت السلطات في مصر تغيير هذا الفكر المتطرف عند جماعة التكفير والهجرة، لكنها لم تتخذ إجراءات صارمة ضدهم على الرغم من ظهور فكرهم التكفيري ومغالاتهم في الأحكام الشرعية بشكل علني وواضح، أملاً من السلطات المصرية في انخراط الجماعات التكفيرية في الحياة السياسية ودعم التحول في النظام السياسي بين الحقبة الناصرية والانفتاح على العالم الغربي.

أغرت السياسة الناعمة التي استخدمتها السلطات المصرية الجماعات التكفيرية للقيام باختطاف ثم تصفية وزير الأوقاف المصري الشيخ محمد الذهبي عام 1977 [3]، على أثر هذه العملية قامت السلطات المصرية بحملات أمنية واسعة وأعدمت القادة في جماعة التكفير، أدى هذا التحوّل إلى اختباء فلول الجماعات التكفيرية تحت الأرض والتجهيز لردة فعل على هذه

الحملة الأمنية، وظهر بين أفراد الجماعات التكفيرية تنظيم عسكري سمى نفسه "جماعة الجهاد"، والتي تبعت تعاليم كتيب "الفريضة الغائبة" الذي ألفه مؤسس الجماعة محمد عبد السلام فرج، وهو مؤلف تحريضي على الجهاد بالمفهوم الذي تراه الجماعات المتطرفة، فكان أول مؤلَّف نادى بقتال العدو القريب وتقديمه على قتال العدو البعيد [4]، وقامت الجماعة باغتيال الرئيس المصري محمد أنور السادات أثناء عرض عسكري عام 1981.

وبالتزامن مع أحداث مصر ظهرت جماعة الإخوان في المملكة العربية السعودية، حيث قام شاب يدعى جهيمان العتيبي بنشر فكر متطرف ضد الدولة وكفّر الحكومة، وفي أواخر عام 1979 دعى جهيمان أتباعه لاحتلال الحرم المكي وفق خطة سرية أعدها مسبقاً بهدف إقامة دولة إسلامية على طريقته، واستمر احتلال جماعة جهيمان للحرم 22 يوماً، اضطرت القوات السعودية بعدها لاقتحام الحرم والقضاء على هذه الجماعة بعد فشل الوسائل السلمية.

1. مرحلة الجهاد في أفغانستان

عند احتلال أفغانستان من قبل الاتحاد السوفيتي، أطلق رئيس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عبد العزيز بن باز ومجموعة من علماء الأمة الإسلامية فتوى بوجوب الجهاد في أفغانستان ضد المحتل الروسي [5]، ولبّت النفير أعداد كبيرة من الشباب العرب المتطوعين، بعضهم ممن لهم ارتباطات مع الجماعات التكفيرية، ونعتقد في هذا الصدد أن الدول العربية هدفت من خلال السماح للشباب بالقتال في أفغانستان إلى تفريغ طاقاتهم التي كانت لتنفجر في البلاد العربية، وتحويل زخمها صوب ميدان بعيد، تصادف أنه ما عرف باعتباره العدو الشيوعي الذي يحمل أطماعاً توسعية في البلاد العربية، وعلى الرغم من تحقق الهدف القصير وهو النصر على التدخل السوفيتي إلا أن المقاتلين العرب عادوا إلى البلاد العربية مدربين عسكرياً على القتال والاتصالات وتصنيع المتفجرات، إضافة إلى مهارات حرب العصابات والكمائن، والأخطر كان تقارب الأيدولوجيات بينهم وشعورهم بالقوة الناتجة عن توحدهم.

وكان من أهم الأشخاص الذين بزغ نجمهم بين المقاتلين العرب إبان مرحلة الجهاد الأفغاني الدكتور عبدالله عزام، الذي لُقّبَ في صفوف المقاتلين بأول الأفغان العرب وتبعه تلميذه أسامة بن لادن الذي كان يقود المعارك وينظم التمويل وإيصال المقاتلين العرب وتدريبهم، وعلى الرغم من وجود الكثير من الفصائل العربية واختلاف توجهاتها التي تقاتل في افغانستان إلا أن بن لادن كان يلقى القبول والاحترام لدى معظم الفصائل.

في مرحلة الحرب الأفغانية كان الجهاد يوصف في أدبيات الجماعات المتطرفة باعتباره جهادا للعدو البعيد (فالاتحاد السوفيتي دولة غير مسلمة تحتل دولة مسلمة هي أفغانستان)، وقد كانت أولوية المقاتلين العرب نصرة أخوتهم في الدين ضد من قطع حدودهم واستحل دولتهم، جهاد العدو البعيد هذا يتفق عليه جميع منظري الأيدولوجيات السلفية الجهادية.

وقد كانت افغانستان في تلك المرحلة بين عامي 1981 و 1989 ملجأ لجميع الجماعات الممنوعة في بلادها، مثل جماعة التكفير والهجرة وجماعة الجهاد وعلى رأسها المصري أيمن الظواهري الذي كانت لأفكاره (أفكار جماعة الجهاد) أثر كبير على بن لادن في مرحلة ما بعد الحرب الأفغانية، حيث انحرفت توجهات بن لادن عن مسار عبدالله عزام الذي كان يرى تقديم قتال العدو البعيد عن قتال المسلمين أو الخروج على الحكام، كما كان يرفض تدخل العرب في الشأن السياسي الداخلي الأفغاني، فهدف عزام من جهاد العرب في أفغانستان كان طرد الروس، ودعى المقاتلين العرب إلى تعليم الأفغان أصول الدين والفقه واللغة العربية وتجنب السياسة الداخلية، لكن الظواهري وبن لادن كان رأيهما مغايراً لعزام بهذا الشأن حيث أيد بن لادن والظواهري قيام ولاية إسلامية في أفغانستان تكون ملاذاً للحركات الجهادية الممنوعة في بلادها الأصلية [6].

انتقل بن لادن والظواهري إلى السودان أثناء الحرب الأهلية الأفغانية، وأقاما معسكرات لتدريب المقاتلين، وقامت جماعة الجهاد بإمرة الظواهري بعمليات إرهابية ومحاولات اغتيال للرئيس المصري ورئيس الوزراء، وبعد الضغط على السودان من قبل الولايات المتحدة والدول العربية لتسليم بن لادن والظواهري وقادة الجهاد الأفغاني الداعين للعمليات الإرهابية طردت السودان بن لادن والظواهري وعادوا الى أفغانستان التي انتهى فيها الحكم إلى حركة طالبان، التي احتضنت القاعدة والمتطرفين الهاربين من البلاد العربية، في نفس العام 1996 أصدر بن لادن إعلان الجهاد لطرد المصالح والقوات الأجنبية من البلاد العربية، وتم تفجير أبراج الخبر في عملية إرهابية للقاعدة في السعودية 1996، ثم تفجيرات السفارات الأمريكية في نيروبي ودار السلام 1998، والتي لاقت ردوداً عسكرية أمريكية بضرب المواقع التابعة للقاعدة بالصواريخ، وبدأت الحرب المعلنة بين تنظيم القاعدة والولايات المتحدة الأمريكية والحكومات العربية بعد إطلاق فتاوى كثيرة من قبل منظري وقادة التنظيم مثل المقدسي والظواهري بتكفير الدول العربية في عدة رسائل.

برأينا فإن ما يميز مرحلة الجهاد الأفغاني من الناحية الفكرية هو أنها سمحت بنشر الأيدولوجيات المختلفة وتطويرها، بسبب وجود بيئة اجتماعية حاضنة وبعيدة عن السلطات الأمنية وهيئات العلماء المسلمين المعتبرة التي كانت قادرة على دحض المتشابه من تأويلات الفكر المتطرف، وقد نشط فكر جماعة الجهاد بقيادة الظواهري وبدعم بن لادن وغيرها من الجماعات المتطرفة، فلولا مرحلة أفغانستان ما كانت الجماعات المتطرفة لتستمر في ظل الملاحقات الأمنية من قبل أجهزة الامن والرصد الفكري من قبل علماء الأمة، ونعتقد أن هذه الملاحقات وهذا الرصد هما السبب الرئيسي لعودة قيادات تنظيم القاعدة إلى أفغانستان، حيث لم تكن البيئة في السودان أو أي دولة عربية أخرى مناسبة لنشر الأيدولوجيات التكفيرية، لوجود العلم الشرعي المأخوذ من مصادره الصحيحة وسرعة رصد أي شذوذ في الفكر الإسلامي السليم ودحضه، وإلا فإن الكثير من البلدان الإسلامية وحتى غير الإسلامية كانت لتوفر لهم المأوى نكاية في الولايات المتحدة ولكن أفغانستان كانت ملاذاً آمناً وبيئة مناسبة للدعوة والاستقطاب والتخطيط والتجهيز.

2. مرحلة الحرب على الإرهاب

وصلت القاعدة مع الولايات المتحدة إلى نقطة الاشتعال عند تنفيذ هجمات 11 سبتمبر2001 الإرهابية على أبراج التجارة العالمية وعدة أهداف أخرى بواسطة مجموعة من الشبان العرب، ورد الفعل الغربي في احتلال أفغانستان ما حدى بالقاعدة والمحاربين الأفغان العرب للتفرق والاختباء والكمون للتخطيط وتنفيذ العمليات الانتحارية في أنحاء متفرقة حول العالم.

وعلى الصعيدين العملي والفكري انحصرت القيادة العملياتية في بن لادن والظواهري، أما عن القيادة الفكرية فقد ظهر عدد من المنظرين للقاعدة كان أهمهم المقدسي وأبو قتادة الفلسطيني وفارس الزهراني وأبو مصعب السوري، أما في المجال الاستراتيجي فكان هناك أنور العولقي وأبو يحيى الليبي وأبو بكر ناجي الذي اشتهر في أوساط المتطرفين بسبب كتابه "إدارة التوحش" والذي يعد المسطور الأخطر من حيث توصياته لبسط سيطرة التنظيم وإنشاء دولته المنشودة، وبرأينا فإن التصنيف أعلاه لم يأخذ الصفة الوظيفية أو البيروقراطية ولكنه أخذ الدور الغالب لكل شخصية فجُلُّهم شارك في الناحية العملياتية وكذلك كلهم قد أصدروا فتاوى في وقت ما.

من جهة أخرى، نعتقد أن الحرب الأمريكية على أفغانستان وإن أدت هدفها العسكري بالقضاء على سيطرة القاعدة على الأرض، إلا أن أهداف القاعدة طويلة الأمد هي ما تحقق حيث أن وجود حالة من عدم السلام وعدم الاستقرار وتفشي ظاهرة الإسلاموفوبيا والاعتداءات المتكررة ضد المسلمين في العالم الغربي هي ما يجعل بعض الشباب يتخذون مواقف متطرفة نتيجة لحالة التضاد التي تضطرهم للوجود في معكسر أعداء الأعداء، إضافة إلى الرأي العام العالمي والامتعاض في المجتمعات الإسلامية حتى المعتدلة منها نتيجة وحشية الحرب الأمريكية في أفغانستان والتي راح ضحيتها الكثير من المدنيين والعزل ودمرت فيها البنية التحتية لأحد أفقر بلدان العالم، فابن لادن كان يصرح دائماً بأنه يريد جرّ القوات الأمريكية إلى أراض إسلامية [7].

3. مرحلة الحرب العراقية

غزت الولايات المتحدة العراق العام 2003، وكانت هذه الحرب برأينا حقنة الحياة للجماعات المتطرفة، حيث وهبت لهم أرضاً للتجمع والنفير وغدارة العمليات الإرهابية، واعطتهم المبررات الدعوية المناسبة، وأذكت الطائفية في العراق، وأبرزت جيلاً جديداً من المقاتلين كالزرقاوي، الذي استطاع أن يحصل على بيعة مقاتلي القاعدة في العراق على أن يعطي هو البيعة لابن لادن، وقد نشطت العمليات الإرهابية في عهد الزرقاوي، في مرحلة تعدّ الأكثر دموية في تاريخ العراق، فقد استهدفت العمليات الانتحارية جميع أنواع الأهداف المدنية والعسكرية على حد سواء، وعمليات القتل والذبح المصورة وبعضها كان بيد الزرقاوي نفسه، حتى أصبح العراق كله ساحة حرب مفتوحة، أي أرضية خصبة ومناخا مناسبا لانتشار الجماعات المتطرفة في البلاد، ومع أن جماعة التوحيد والجهاد التي كان يقودها الزرقاوي كانت محدودة المصادر وذات عدد لا يتجاوز المئات من المقاتلين في البداية، غالبيتهم من المتطوعين العرب إضافة إلى من قدموا مع الزرقاوي من

أفغانستان، إلا أنها استطاعت أن تحفظ لنفسها مكانة مهمة في ساحة المقاومة العراقية بسبب الخطاب الدعوي والسياسي العنيف والهجمات القوية التي كانت تشنها على الشرطة العراقية والقوات الأمريكية، واستطاعت تدريجيا أن تحتوي الكثير من الجماعات وتذوّب هويتها الأصلية ضمن هوية التشدد والتطرف الذي تميزت به التوحيد والجهاد والقاعدة في بلاد الرافدين فيما بعد، ما زاد في مصادر التنظيم وقوته واتساع رقعة عملياته، كما استطاع الزرقاوي استقطاب الكثير من ضباط ومحترفي الجيش العراقي الذي قامت الولايات المتحدة بحله واستفاد من خبراتهم العسكرية والإستراتيجية.

ومن ناحية العمليات، اعتمد الزرقاوي بشكل رئيسي على العمليات الانتحارية المتكررة ضد أشخاص مهمين وأهداف حساسة مثل اغتيال رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية محمد باقر الحكيم وممثل الأمم المتحدة سيرجيوفيرا دي ميلو في غضون 10 أيام بين العمليتين [8]، وغيرها من العمليات المشابهة، إذ تبني العمليات بشكل مباشر، وفي كثير من الأحيان قام بتصوير تلك العمليات ونشرها على الإنترنت، في توظيف واضح لدور البروباغندا الحربية، وقد أدار الزرقاوي عملياته عن طريق اتصالات معقدة وصعبة التتبع يرجح أنها من تركة الجيش العراقي المفكك، ما أضفى صفة المباغتة والمفاجأة على معظم عملياته.

من الناحية الفكرية فإن مرحلة الزرقاوي اعتبرت من أكثر المراحل غلواً حتى تاريخها، حتى أن الكثير من منظري القاعدة ومنهم المقدسي أرسلوا له برسائل تعبر عن رفضهم لهذه السياسة المتشددة والرهق في الدماء [9]، ورغم الإنتقادات الموجهة له فقد تمسك الزرقاوي في هذا الإنحراف الجديد في الغلو والتطرف، حيث كانت القاعدة في بلاد الرافدين تستعجل إقامة الدولة وبسط النفوذ على المدن السنية بإذكاء نار الطائفية والحرب الأهلية من خلال نشر الفوضى والقتل والإرهاب.

نرى بأن هذه السياسة لا تستند إلى أي تأويل شرعي أو مذهب فكري ديني، حتى من المتطرفين أنفسهم، فهي مجرد طريقة ميكافيللية يستحل فيها قتل أي كان مسلما أو غير مسلم، وعدوا حامل للسلاح أو مؤتمنا مدني، مدانا في المذهب أو مخالفا، كل ذلك ضمن عمليات قتل وتفجيرات كان أكثرها عشوائي الاستهداف، ومن غير المتصور استجابة هذه الجماعة ومن في مستواها من التطرف لأي قواعد في القانون الدولي الإنساني، فهي تبرر استهداف المدنيين ولا تجد حرجا في ذلك، وهي درجة استجابة أقل من حالة إنكار أطراف النزاعات لقتل المدنيين أثناء الحروب، مما يعني أن تطبيق القانون الدولي الإنساني سيكون أصعب في حال الجماعات المتطرفة من الدول الداخلة في النزاعات، إذ درجت الجيوش والدول على إنكار استهداف المدنيين أما الجماعات المتطرفة فتتبنى هذه الاستهدافات وتبررها وتفخر بإنجازها، وهو أمر مبرر لديهم طالما أوصل إلى الغاية المنشودة وهي إقامة الدولة.

وعلى أثر التهميش والعنف الذي عانى منه المكون السني في العراق، واستغلال هذه الظروف من قبل القاعدة في العراق فقد أنشأ الزرقاوي الأحلاف مع العشائر السنية في وسط وغرب العراق إضافة إلى قوات الجيش العراقي المفكك تحت مسمى مجلس شورى المجاهدين، والذي تحول فيما بعد إلى دولة الإسلام في العراق.

بعد مقتل الزرقاوي في غارة جوية أمريكية 2006 أعلن تنظيم القاعدة في الرافدين عن اسمه الجديد وهو دولة العراق الإسلامية وأميرها أبو عمر البغدادي ونائبه أبو حمزة المهاجر (أبو أيوب المصري)، وتزامن هذا التغير مع ظهور قوات الصحوة التي قام بتأسيسها الحاكم العسكري في العراق، والهدف منها هو مقاومة القاعدة من خلال الوسط السني، بتجنيد أبناء العشائر السنية ضمن هذه القوات لتخوض هي المعارك مع المتطرفين، وقد نجحت قوات الصحوة في إضعاف القاعدة ومحاصرة أماكن تواجدها، ويرى الباحث أن نجاح قوات الصحوة في تلك المرحلة هو دليل قوي على عدم ترحيب المكون السني العراقي بالمتطرفين وأن التحالف معهم كان اضطرارياً لتأمين الحماية في ظل عدم وجود قوة بيد العشائر السنية في فترة انفلات أمني في العراق، ولم يكن ذلك بسبب القبول الأيدولوجي.

4. مرحلة داعش

بقي تنظيم دولة العراق الإسلامية والذي كان مطلباً لتنظيم القاعدة العالمي في حالة مد وانحسار ضمن إطار من العمليات الانتحارية من أعضاء التنظيم والهجمات الأمنية من قبل القوات الحكومية العراقية والغارات الجوية من القوات الأمريكية، في مدن وسط وغرب العراق ولم تحصل في عهد أبو عمر البغدادي تحولات أيديولوجية، فهدف التنظيم منصوب منذ الزرقاوي والاستراتيجية المرسومة هي نفسها كما كانت مستمدة من كتابات أبي بكر ناجي واستمرت الأيديولوجية نفسها حتى بعد مقتل أبي عمر وأبي أيوب المصري وتولي أبو بكر البغدادي قيادة التنظيم، حتى قيام ثورات الربيع العربي، والتي سرعان ما وصلت إلى سوريا والعراق وقام تنظيم القاعدة العالمي وبالتنسيق مع تنظيم دولة العراق الإسلامية بتأسيس تنظيم جبهة النصرة بناء على مقترح من أحد قادة تنظيم دولة العراق الإسلامية، قدمه إلى زعيم التنظيم أبو بكر البغدادي الذي أسند قيادة جبهة النصرة إلى الجولاني لمحاربة النظام السوري وبسط سيطرة التنظيم على مناطق لاتباعها للبغدادي [10].

واجهت جبهة النصرة مشكلة أيديولوجية منذ انطلاقتها، حيث وقعت بين منهجين مختلفين والتحالف مع المجتمع المحلي والفصائل المعارضة الأخرى، وبين أسلوب تنظيم دولة العراق الاسلامية والذي يوصي بالسيطرة على الأرض وإعلانها أراض تابعة لها ومقاتلة أي فصيل لا يبايع التنظيم، وقد اختار الجولاني اتباع نهج تنظيم القاعدة مستنداً نظرياً وعملياً إلى أطروحات أبي مصعب السوري، بينما استند تنظيم دولة العراق الإسلامية فقهياً إلى عبدالله المهاجر وعملياً إلى أطروحات أبي بكر ناجي، وقد تنبه البغدادي إلى هذا الصدع الذي يتنامى وأعلن عن ضم جبهة النصرة في نيسان 2013 ليصبح اسم التنظيم دولة الإسلام في العراق والشام (والمختصرة بكلمة داعش).

رفض الجولاني الدمج وأعلن بيعته للظواهري وعدم تبعيته للبغدادي في اليوم التالي لإعلان البغدادي، وقد تسببت هذه المسألة بإعلان الخلاف بين تنظيم القاعدة وداعش، الأمر الذي أدى إلى خلافات واسعة بين متبعي التنظيمين في الوسط السلفي الجهادي حول العالم، فقد انشق عدد من أتباع كل تنظيم ليتبع التنظيم الآخر، وعبر مقاتلو داعش الحدود إلى سوريا لمشاركة المنشقين عن النصرة والبدء بتنفيذ مخطط داعش في السيطرة على الأرض وإخضاعها للتنظيم، وقد ساعد التدخل الإيراني في سوريا على تعزيز حرب الهوية التي ينادي بها تنظيم داعش، ما فتح له المجال من خلال زيادة الحاضنة الشعبية التي كانت تراه المخلص الوحيد من حالة الانفلات الأمني في مناطقها.

تحقق لداعش هذا الهدف بحيث سيطرت على مناطق شاسعة ومدن مهمة في كل من القطرين العراقي والسوري مثل الرقة في سوريا والموصل في العراق وازالة الحدود بين البلدين ثم إعلان الخلافة الإسلامية العالمية للبغدادي [11]، بعد إعلان الخلافة من قبل الناطق باسم داعش أبو محمد العدناني، فقد أعلنت العديد من التنظيمات المتطرفة البغدادي وأعلنت نفسها ولايات لداعش، في اليمن وليبيا ومصر وأفريقيا وباكستان وأفغانستان وبلاد أخرى.

تجدر الإشارة إلى دور الإعلام الرقمي الذي استخدمته داعش في استقطاب المقاتلين وتحريض الشباب المسلم حول العالم على العنف والإرهاب، فقد استخدمت أذرعها الإعلامية المحترفة وصورت العمليات الإنتحارية والمعارك وعمليات الإعدام، وأنتجت الإصدارات المرئية والمسموعة والمكتوبة ونشرتها حول العالم عبر الإنترنت، وقد نجح الجانب الإعلامي في استقطاب أعداد من الشباب للهجرة إلى داعش، كما نجحت بغسيل أدمغة بعض الشباب عبر هذه الإصدارات وتوجيههم للقيام بعمليات انتحارية في شتى بقاع العالم راح ضحيتها الكثير من المدنيين وعززت حالة كراهية المسلمين في المجتمعات الغربية، في محاولة لعولمة حرب الهوية التي تعتمد عليها داعش منذ جذورها في عهد الزرقاوي.

بعد سيطرة التنظيم على المدن الرئيسية والنجاحات الميدانية والتنظيمية التي استند إليها التنظيم بتوسيع رقعة نفوذه، أعلنت الحرب على التنظيم من قبل الولايات المتحدة وتحالف دولي ضم دولاً عربية ودولاً عظمى، وقد هدف التحالف الدولي إلى ضرب المواقع الإستراتيجية جواً ومساندة القوات البرية العراقية والفصائل المعتدلة في سوريا لمقاتلة التنظيم وحصر سيطرته على الأرض وقطع مصادر إمداده البشرية والمالية، وهذه الحرب مستمرة منذ إعلان خلافة التنظيم 2014 وحتى تاريخ هذا البحث وقد شملت جهوداً عسكرية وتدريبا وتسليحا لبعض الفصائل وجهودا استخبارية مشتركة بين دول التحالف في ظل تنسيق وغرف عمليات حربية مشتركة، بالإضافة إلى مراقبة عالمية على المحتوى الرقمي عبر الإنترنت والمنصات الاجتماعية لمنع نشر مواد وإصدارات التنظيم ورصدها وإغلاق مصادرها، وقد نجحت الحرب في حصر السيطرة الأرضية للتنظيم وتمكنت من قتل الكثير من القادة المؤثرين فقهياً وعسكرياً وتوجت بقتل البغدادي قائد التنظيم 2019.

III. تحليل ظاهرة الجماعات المتطرفة في المنطقة العربية

يتناول التحليل العام لظاهرة الجماعات المتطرفة في المنطقة العربية ناحيتين، هما: أهم الأسباب تساعد في ظهور وانتشار فكر الجماعات المتطرفة في المنطقة، والأدوات السياسية والعسكرية التي تستخدمتها الجماعات المتطرفة.

1. أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور وانتشار فكر الجماعات المتطرفة المعاصرة

يمكن إجمال هذه الأسباب فيما يأتي:

1. غفلة أو تغافل الحكومات العربية إبان الحرب الأفغانية عن ما يجري في أفغانستان من قبل منظري التيارات المتشددة من نشر للفكر المتطرف بين الشباب العربي الذي انضوى لقتال الشيوعيين.

2. التركيز على المحاربة الأمنية للفكر المتطرف بشكل أكبر من التركيز على التصدي الفكري والشرعي والاجتماعي والنفسي له خاصة في فترة الستينات والسبعينات التي خطت فيها أهم المصادر التي استندت إليها الجماعات المتطرفة المعاصرة، بل أن إعدام وسجن بعض منظري ومؤسسي الفكر المتطرف كان له أثر أكبر في قبول أفكاره.

3. الظلم والاعتداءات التي تعرضت لها دول إسلامية عديدة في أنحاء العالم، لأسباب سياسية واقتصادية في حقيقتها ترتبط بالموارد، مع عدم وجود قوة إسلامية جامعة ترد هذه الاعتداءات، ما ساعد بعض الشخصيات المتطرفة مثل بن لادن للتصدر واستغلال الموقف لنشر الفكر المتطرف.

4. محاربة الإسلام السياسي في معظم الدول العربية، إذ أن الجماعات الإسلامية المعتدلة يمكن أن تكون بديلاً للشباب عن الإنضواء تحت رايات التطرف واندماجهم في الحياة السياسية والتعبير السلمي.

5. الطابع الطائفي الذي تغلغل في بعض المجتمعات العربية نتيجة ظروفها السياسية وموقعها الجغرافي وتركيبتها السكانية، والذي عزز حرب الهوية المساعد على انتشار العنف.

6. الفوضى التي تسببت بها ثورات الربيع العربي، فانعدام الأمن وعدم قدرة الدولة على تقديم خدماتها لرعاياها يمكن الجماعات المتطرفة من إيجاد حواضن إجتماعية مناسبة.

7. تدخلات القوى الخارجية مثل الولايات المتحدة وروسيا وإيران وتركيا في الدول العربية، والتي أفقدت بعض الأنظمة شرعيتها وهيبتها أمام مواطنيها.

2. الأدوات السياسية والعسكرية التي تستخدمتها الجماعات المتطرفة

من خلال تتبع الأحداث المرتبطة بالجماعات المتطرفة في المنطقة العربية، نلاحظ أنها استخدمت طريقة القتال ضمن مجموعات صغيرة ضد أهداف رئيسية لعدم وجود تكافؤ في القوة مع الدول، مثل اغتيال الرئيس المصري أنور السادات وأحداث سبتمبر 2001، تم ذلك من خلال التخطيط السري والتنكر (الانغماس)، كذلك استخدمت الجماعات المتطرفة العمليات الانتحارية والتفجيرات المتكررة بشكل كبير، وركزت على الخواصر الرخوة التي لا يتوافر لها تواجد أمني مكثف، وذلك لرفع حالة التوتر وتركيز الدولة على الناحية الأمنية وإنهاكها مادياً لمتابعة العمليات والتصدي لها، ما يستنزف المصادر المالية والبشرية للدولة، في توظيف واضح لمرحلة النكاية والإنهاك التي تحدث عنها أبو بكر ناجي في كتابه "إدارة التوحش"، وقد استخدمت الجماعات المتطرفة المواد الإعلامية مثل الأناشيد الحماسية والرسائل الصوتية والإصدرات المرئية الممنتجة إضافة إلى جيش من مستخدمي منصات التواصل الاجتماعي لاستقطاب الشباب الجدد وتجنيدهم عن بعد، وقد استفادت الجماعات المتطرفة من الشبكة العنكبوتية في نشر الفكر المتطرف والتجنيد ونشر الإرهاب والترويع.

IV. الخاتمة

بناء على التتبع التاريخي لنشاة الجماعات المتطرفة المعاصرة، وبناء على التحليل العام لها كظاهرة، توصل الباحثان إلى النتائج الآتية:

1. تتفلت الجماعات المتطرفة من تبعات القانون الدولي الإنساني على نحو اكبر مما تفعل الدول والجماعات المسلحة المنظمة.
2. أدلجة الجماعات المتطرفة لدوافعها وأهدافها وقوانينها الخاصة بها يؤدي إلى تعقيد تطبيق القانون الدولي الإنساني، نظرا لكون هذه الجماعات تبرر لنفسها استهداف المدنيين كممارسة معتادة بل ومقصودة للوصول إلى أهدافها.
3. الجماعات المتطرفة لا تخفي استهدافها للمدنيين وتعتبره أمرا مشروعا، على خلاف اطراف النزاع التقليديين من جيوش نظامية وميلشيات، فهذه الأخيرة ورغم استهدافها للمدنيين فإنها تنكر ذلك وتتستر عنه، أو على الأقل فهي تحاول التظاهر باحترام القانون الدولي الإنساني، أما الجماعات المتطرفة فلا تعبأ بذلك.
4. الغاية الأساسية من استخدام الجماعات المتطرفة لمصطلحات ومنطلقات إسلامية هي إضفاء الشرعية على أهدافها السياسية.
5. تسلك الجماعات المتطرفة المعاصرة نفس السلوك الدعوي والخطاب السياسي الذي تسلكه جماعات متطرفة في أماكن أخرى من العالم، وتتبنى جميعها نطاقات فكرية متطرفة.
6. تستخدم الجماعات المتطرفة المعاصرة مفهوم الحاكمية السياسي لتبرير شق الصف ونكث البيعة والانسلاخ عن مجتمعاتها ودولها.
7. أثبت جمهور علماء المسلمين المعتبرين بالحجة والدليل بطلان عدم صلاحية المفا
8. تستند الجماعات المتطرفة المعاصرة إلى التاريخ والفتاوى الدينية المتطرفة وتجعلها مرجعية لها بعيدا عن القانون الدولي الإنساني الذي لا يمكن أن تعتبره هذه الجماعات مرجعية لها على أي حال.
9. الهدف السياسي الرئيسي للجماعات المتطرفة المقاتلة الوصول إلى السلطة وتولي مقاليد الحكم في البلاد الإسلامية.
10. يستغل المتطرفون تردي الظروف السياسية وحالات الفوضى والفتنة لنشر فكرهم

المراجع

[1] المودودي، أبو الأعلى، المصطلحات الأربعة في القرآن، دار القلم، ط5 ،1971، ص. 85.

[2] المحيميد، إبراهيم صالح، القصة الكاملة لخوارج عصرنا، دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع 1436هـ، ص. 11-45.

[3] الحفني، عبد المنعم، موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية، دار الرشاد للطباعة والنشر، 1993، ص. 150-152.

[4] فرج، محمد عبدالسلام، الفريضة الغائبة، 1981، ص. 32.

[5] أنس، عبدالله، ولادة الأفغان العرب، دار الساقي، 2002، ص. 14.

[6] عزام، حذيفة عبدالله، برنامج لقاء خاص، تقديم سعد السيلاوي، قناة العربية 2005/7/26.

[7] عطوان، عبدالباري، القاعدة التنظيم السري، دار الساقي،2007، ص. 41.

[8] أبورمان، محمد و بندقجي، نيفين، تنامي الجماعات المتطرفة المسلحة في سوريا والعراق، دراسات مركزة، 2016، ص. 302.

[9] المقدسي، أبو محمد عصام طاهر، رسالة مناصرة ومناصحة للزرقاوي، 2004، ص. 13-14.

[10] أبو هنية، حسن محمود و أبو رمان، محمد سليمان، تنظيم الدولة الإسلامية: الأزمة السنية والصراع على الجهادية العالمية، فريدريتس إيبرت، 2015، ص. 85.

[11] العدناني، أبو محمد، خطاب بعنوان "عذراً أمير القاعدة"، 2014/5/12.